الفصل السابع

بيشـــة[١]

ينطلق الطريق فوق سهل واسع يكسوه نبـات النصي وعليه شجيرات الطلح. تنحدر الأرض ناحية الجنوب وناحية الشرق وتنحـدر المصبات من المرتفعات البعيدة ناحية الغرب إلى أربعة مجارٍ هي -خمدة، وخندان، ووادي المياه، ورشيدة، بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب وذلك أثناء عبورنا لها.

تتقارب ثلاث المجـاري الأولى تدريجياً وتتحد في النهـاية مع الأخير، الذي ينطلق إلى وادي بيـشة خـلال فجـوة ذات حجم مـعتـبـر. تقع السلسلة الجبليـة المنخفضـة الطويلة المكوّنة من فرثان -على الجانب الشمـالي- ومن تل قائم يسمى شمت العـرضة، وهذا ينتـمي لنظام التلال الجنـوبية التي تملأ الأرض الواقـعة بين طريقنا ما وراء رشيـدة، وبين مجرى بيشة. كان وادي الميـه هو الوادي الوحيد من بين خطوط التـصريف هذه الذي واجـهتنا فـيه بعض المـتاعب، فـقد كـان كثـير الأشجار، مما اضطرنا إلى سلوك طريق آخر غير مبـاشر لتحاشي جذوع الأشجار. انتهى بنا منحدر خـفيف من بازلت خشن، فيما يلي وادي الميـه، إلى حد يفصله عن شعيب الحوي والذي يبدو أنه الجزء الأكثر ارتـفاعاً لشعيب رشيدة. وحيث إننا كنا قد وصلنا إلى هذا الموقع من جهة الجنوب، فهو هنا يستدير شرقاً تجاه الفجوة، يقع دربنا الآن فوق حـوي وهو وادٍ يصل عرضه إلى الميل الواحد، وبه شـجيرات تتجمع بين منحدرات منخفضة حتى سفحـه، ويمتد إلى مسافة عشرة أميال إلى جانب

(١) انظر أيضاً الفصل الثاني. (المؤلف).

سلسلة جبلية ترافقه وتميز بنقطتين بارزتين ومرتفع منخفض بينهما. كانت الساعة الخامسة مساء عندما وصلنا إلى هذا الموقع وقررنا أن نعسكر فيه لقضاء الليلة، بعد رحلة قطعنا خلالها أثناء النهار ٤٦ ميلاً.

ارتفعت قمم الحوي إلى علو ٢٠٠ قدم فوق مستوى الوادي وسيطرت على منظر عريض. كانت آخر التفافاتنا وإلى البعيد فوق الدروب إلى الرأس المضجر لخشم الكور الذي يقع ناحية شرق الشمال الشرقي -على بعد ٣٤ ميلاً-. كانت قمة خضعة هي أقصى معلم أرض يمكن لنا رؤيته. وظهر، قريباً منا، ورك منيرة مرة أخرى، كسمة بارزة للسلسلة الجبلية التي تمتد أمامنا، كما يمكن رؤية جمعور وهو جبل منخفض أسود يقف على الجانب الأيمن لوادي بيشة من فوق واحة جنينة.

وقف جبل صدعه العالي، ناحية الجنوب الغربي، بقممه الثلاثة وكأنه حصن خارجي للسلسلة الجبلية الغربية الرئيسية (الحجاز، حقيقة)، التي ابتعدت عنا مدة طويلة وانفصلت بالصخور البركانية وجبال منطقة أخرى، غير أنها، وحتى الآن، تشاهد على البعد كأنها ساحل بعيد. كانت سلسلة جبال أم الغربان ووادي الميه جزءاً من السلسلة الجبلية نفسها برغم أنها ليست مهيبة مقارنة بصدعة والتي لا بد وأن ارتفاعها كان لا يقل عن ١٥٠٠ قدم أو أكثر من فوق موقعنا.

لاحظنا في الصباح آثاراً جديدة للذئاب في أبي الدفوف بالقرب من معسكرنا، وقد سبق لي أن أشرت إلى ملاحظة الغزلان الثلاثة. لم نر وباستثناء الجمال التي كانت ترعى في سهل حشرم ومرافقيها، إلاَّ أثراً ضعيفاً للحياة خلال هذه الرحلة. طارت حبارى من أمامنا في شعيب الحوي وهي فزعة ونما إلى

أسماعنا صوت بلبل غـير أننا لم نر الطائر نفسه وفي غير ذلك، فـحتى دنيا الطير كانت شـحيحة فهي قـليل من يمام الصحراء، وقنابر والصرد. ويبـدو بوضوح أن البلاد التي مررنا فوقـها في المراحل الأخيرة خلال مسيرة اليوم لم تـنل نصيبها من الأمطار الأخيرة، والتي ربما لم تمتد جنوباً إلى أبعد من حشرم.

كشف دليلي عن معرفـته لجغرافية بلده، وبأنه متعلم، غـير أنه الآن بدأ يفقد عمـقه في هذه المنطقة «الأجنبيـة». ولحسن حظي فقـد كنت ملماً بدرجة معـقولة ببلاد بيشة وكانت خرائطي الخاصة لعام ١٩٣٢م مفيدة لي.

كنا لا نزال بالفـعل في منطقة سبـيع التي تمتد إلى شـريط شعيب ذي إكـشة الذي يقع أمامنا، وهو رافد لوادي بيشة والذي ينضم إليه في أقصى جنوب سلسلة جبال ثميلة. وينحدر حتى إكـشة وينحدر من عند الجبال التي تقع إلى الجنوب من كتلة صدعة. يخرج مـجرى آخر من جانبه الشمالي ليعـترض ممرنا لعدة أميال إلى ما وراء تل الحـوي ليتحـد مع ذي إكشه على الجـانب القريب من ثمـيلة. تسمى التلال الواقعة إلى الشمال من مخرج قـمة ذهب، في مجملها، باسم كور البريحه -بريحة تصـغير برحة-، وصـدعة، وأم فرجين وكتل مـرتفعة أخرى كلهـا كانت استمـراراً جغرافيـاً لهذه السلسلة الجبلية، وعليـه فهي ليست جزءاً مكمـلاً لحاجز الحجاز الرئيس، الذي يقع ناحيـة الغرب. جرى طريقي لعام ١٩٣٢م بين الكتلتين الاثنتين فوق بلاد ذات تلال سفحية منخفضة.

لا يوجد مـا يثيـر الاهتمـام لهذا الوادي الرملي العظيـم المطعم بالشجـيرات والذي من خلاله يشق هذان الواديان طريقهما، غير أننا رأينا زوجاً من الغزلان في الصباح الباكر وكذلك السحليـة الورل، والتي برغم أنها كانت مجروحة، إلاَّ أنها

تمكنت من الهرب إلى جحرها. وصلنا إلى منطقة قحطان فيما يلي ذي إكشه، وهي أشهر قبائل العرب وأكبرها وربما تكون من جوكتان «سفر التكوين»[١]. مررنا في الطريق بهضبة جرانيتية أوحى لي شكلها بالانطباع لأسد مضطجع. تسلقنا هذه الهضبة، ما عدا كتلة على رأس الأسد لا يمكن تجاوزها ذلك لغرض المنظر العام واستكشاف كهوفه التي نحتتها الرياح، وقد تسبب دخولنا في إزعاج مجموعة من الخفافيش. كما لاحظت زوجاً من حجل الصخور (سيسي) وإلى جانب ذلك قمت بإدخال الدرسة إلى الحقيبة. كما كانت هنالك يمامات صحراوية وصقر يحلق لعله يتفقد ما يحدث. وإذا اعتبرنا صغر حجمها، فإن هذه الصخرة تعج بالسكان.

دخلنا إلى شريط كثير الرمل، مباشرة بعد مواصلة الرحلة إلى ما يلي هذه الصخرة، تخترقه من الغرب إلى الشرق جداول عديدة لوادي تبالة والذي به مجموعة قرى عالية بالقرب من سفحه في الجبال، وهو ينحدر إلى السهل ليتحد مع وادي بيشة فوق هضبة جمعور. كانت هنالك أربع برك أكثرها مهابة كانت الثالثة[٢] التي يعلمها شريط كثيف من شجيرات غضا جيدة النمو وبعض شجيرات الطرفاء القزمية. وصلنا بعد أميال قليلة من هذا الموقع، إلى ديلمي وهي قرية ذات مزارع

(١) عمل بعض المستشرقين على ربط بعض مناطق ومدن الجزيرة ببعض الأسماء التي وردت في التوراة، وهذه إحدى المحاولات التي لا تقوم سوى على التشابه اللغوي بين الأسماء. ويرى بعض الدارسين أن اسم قحطان ذكر في التوراة باسم يقطان، والمقصود هو قحطان الموغل في القدم وليس قحطان القبيلة المعاصرة. (المراجعون).

(٢) استناداً إلى معلومات أخرى وصلتني أخيراً، فهذا المجرى ليس تبالة ولكنه خليج، ينساب الأول إلى وادي بيشة عند سبيحي فوق ديلمي ولذلك فهو لا يعترض طريقنا بالمرة. واستناداً إلى المعلومات نفسها فإن ذي إكشه يجب أن يكون نصيفه (Nasif)، في رأيي، وأين ذهب ذي إكشه لا أدري أي الصور هي الصحيحة. (المؤلف).

نخيل على الجانب الأيمن لوادي بيشة. كنا قد قطعنا ٣١ ميلاً ولا يزال الوقت مبكراً، غير أننا قررنا أن نمكث هنا حتى الغد ليكون لدينا حينها الوقت الكافي لنواصل الرحلة إلى الروشن، عاصمة بيشة التي تقع فقط على بعد عشرة أميال.

ما يثير الاهتمام بمستوطنات بيشة هو اقتحام عناصر شهران لها منذ عهد قديم، وهم الذين يكون موطنهم الصحيح في الجبال إلى الغرب من مجرى بيشة وهي أراضٍ تابعة لقحطان. بدا العنصران وكأنهما متحابان، غير أنه من الغريب أن نجد أن القادمين ليسوا على الشاطئ الأيسر وهو الأقرب إلى بلادهم،ولكنهم على الجانب الآخر من النهر، حيث يحتلون قرى دحو، حريرة، سبيحي، جنيح وغيرها[١]. كل قرى ضفة الوادي اليسرى يمتلكها أكلب (بني كلب) مجموعة من قحطان.

يخترق طريق السيارات قرية ديلمى وكان معظم موقع القرية على بعد ٢٠٠ ياردة إلى اليمين، بينما يقف إلى اليسار قصر منعزل بمبانيه الإضافية العادية. تسمى القرية الرئيسة عطف أو عطف الديلمى، محتفظة بالاسم الأصلي لملاك أرضها وهم القسم الديلمي لأكلب، يوجد في اتجاه أسفل الوادي، على الجانب نفسه، وتقريباً في استمرار مع الديلمى مزارع نخيل عطف الجبرة -قسم آخر من اكلب- كما توجد قريتان صغيرتان تسميان دوَّاره وسقيفة. قضيت معظم فترة الظهر في هذه المنطقة، متجولاً باحثاً عن الطيور ومتحدثاً مع من أقابلهم من الناس أثناء أدائهم عملهم في مزارع النخيل أو في الحقول. أخبرني أحدهم أنه قبل

(١) هذه تضم الروشن ونمران ونغيلة وحرف -على جانب الوادي الأيسر- كلها في اتجاه الوادي عدا رقيطة فهي في اتجاه أعلى الوادي بالنسبة للدحو.(المؤلف)

حوالي ١٥ شهـراً وقع سيل عظيم دخل الوادي وملأ المجرى من عند حـافة حزام النخيل في ديلمي وجبره إلى السلسلة الصـخرية التي تكوِّن جانب الوادي المقابل. ويقولون إن هذا الوادي ليس بالجاري، بمعنى أن مياه السيول تنساب بعيداً عنه ولا تتسـرب إلى حوضه لتكوِّن أنهـاراً تحت أراضيه، كمـا هو الحال في رنية والخـرمة وتربة. وبناء على هذا القول، فإن قرى بيشـة لا تعاني من حمى الواحة التي تعم الثلاثة الأخريات -وتوجد على أي حال- عدة برك معتبرة للمياه في هذا الجزء من المجرى نتيجة الأمطار الأخيرة، غير أنه لم تكن هنالك سيول كبيرة تذكر.

تقع قرية دحو بـأشجار نخيلها القلـيلة على أرضها المرتفعـة إلى حد ما، في مقابل جبرة عند منحنى سـلسـلة صخرية، وكان الجانبـان في وقت من الأوقـات -ليس بالزمن البـعيد- يتـحاربان من حين لآخر بأسـلوب قبلي قديم. قـال أحد محدثـي من جبرة مشـيراً إلى الدعوة السلفيـة لعام ١٩١٠م وما يليهـا: «قبل أن نصبح كلنا مسلمين، كنا وهم دائماً في حروب، ولكن الآن -ونشكر لابن سعود- لقد أطل السلم بـيننا لزمن طويل. الحمدلله! الحـركة السلفيـة بالكاد وصلت إلى بيشـة قبل العـشرينيـات. أشار مـحدثي وهذا أدهشني، إلى شـهران بأنهـم قسم لقـحطان وأكد وبفـخـر أن أكلب فرع من تغلب وأن شـهـران اشتـقت من أصل قحطاني وأن هذا القسم الأخـير تمتع باستقلالية كبـيرة، وحقيقة فهـو يتمتع بمرتبة قبلية كاملة، بينمـا لم تعد قبيلة تغلب حية، اللهم إلاَّ في شـجرة نسب سلالاتها الذين يدينون بالولاء للقـادة القـحطانيين. ذكر لي مـحـدثي إلى أن أكلب يملكون قرى بيشة وهـي: الجنينة، أصلان، شقيقة، نجـيعة، جبرة والديلمي كمـا استقروا كذلك في الثنية في المرتفعات العليا قباله.

يبدو أن أهل الديلمي فقـراء، ومكوثنا في وسطهم مكرمة من عند الله لهم،

وكان ذلك لأنهم تحصلوا على مبلغ جنيه استرليني واحد دفعناه مقابل تموينهم لنا بالبيض والدجاج والخضراوات، أو بالاستجداء، أو في حالة مساعدة الأطفال لي في أبحاث الطيور التي انتعشت بسببهم. كانت جائزتي الكبرى هي الحصول على بومه سكوبس والتي أطلق عليها المتحف البريطاني فيما بعد اسم Ots Scops Pamelae. أحضر لي أحد المواطنين أربعة منها وأحضر لي كذلك ثلاثة من بوم الحظائر، وجرذاً واحداً وعدداً من الجرابيع. وقد كانت آكلات النحل في وفرة بين أشجار النخيل، وهي تعشش هنا بلا شك، وذلك لأنه قد أحضر لي فرخ صغير لم ينبت نصف ريشه بعد إلى جانب بيض لبعض العصافير في مرحلة مماثلة من النمو. كانت طيور الهدهد والبلبل أيضاً شائعة وكذلك يمام النخيل طويل الذيل. أضفت إلى مجموعتي حيوان الورل وكان عليَّ أن أستغني عن خدمات صبية لم أكافئهم على ما أحضروه لي من الطيور التي اصطادوها وذلك لأنهم مثلوا بها بتحطيم أجنحتها أو بنزع ريش الذيل.

تجمع حشد كبير من الرجال والنساء والأطفال في الحديقة الجميلة التي نصبنا فيها معسكرنا لكي يقوموا بوداعنا في صباح اليوم التالي وقد جلبوا لنا اللبن والبيض والخضراوات على أمل أن نشتري منهم عند آخر لحظة. يبدو لي أن الديلمي، بناء على جهاز قياس الارتفاع غير السائل أنها عند الارتفاع نفسه فوق سطح البحر الذي تقع عليه رنية، والتي تبعد عنها حوالي ١٠٠ ميل. عبرنا الوادي على طريق مائل لنصل إلى نهاية السلسلة الصخرية المقابلة، ولم تواجهنا صعوبة في العبور، لم تكن هنالك مياه في مجرى السيل الأصلي عند هذا الموقع، حيث كان عرض الوادي ١٠٠ ياردة، وكان القاع الطيني متيناً. اكتسى معظم بطن المجرى بأشجار طرفاء قصيرة وبنبات الشار ذي السائل اللبني. وصلنا إلى الجانب

الآخر فوق الحريرة حيث رافق طريق السيارات درب الجمال القديم عن قرب على الجانب الأيسر للروشن ذلك الدرب الذي كنت قد سلكته عام ١٩٣٢م. لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا إلى باب قصر الحاكم وتمت إقامة معسكرنا في مزرعة النخيل الجذابة، التي تقع خلفه.

يُعرف مقر إقامة الحاكم رسمياً باسم قلعة بيشة، برغم أنه يشار إليه عادة وباختصار بالقصر. يقع القصر بجوار حلة الروشن ولكنه يقف في منأى عنها في أرض واسعة مكشوفة. كان الحاكم آنذاك (١٩٣٢م) هو عبدالله بن معمَّر، رجل جذاب ولكنه غير مسرف في الكفاءة وهو سليل أسرة آل معمَّر ببلدة العيينة في وادي حنيفة. تولى بعده، بعد عدة سنوات محمد بن جبرين[١] من الرياض ثم تنازل، بعد فترة قصيرة لم تكن ناجحة جداً، إلى محمد بن عبيكان أيضاً من أبناء الرياض وأحد تابعي الأمير فيصل المقربين. وحدث هذا التغيير في يناير ١٩٣٦م، وعليه فقد كان يشغل وظيفته مدة خمسة شهور فقط. كان يعرفني من قديم وتساءل في محبة عن زوجتي مستخدماً اسمها المسيحي وكان قد قابلها أثناء زيارتنا لمعسكر الأمير فيصل في عشيرة في طريقنا من الرياض في ديسمبر الماضي.

استغل الملك هذا التغيير للأمير ليجري عملية غربلة للموظفين القياديين في بيشة ليفسح المجال لبداية جديدة. لهذا فقد صاحب ابن عبيكان حين وصوله تعيين قاضٍ جديد ومدير جديد للزكاة. كان الأخير هو سلمان بن إبراهيم الرّواف من أسرة ذات علاقات وأملاك في العراق والذي كنت قد قابلته في عام ١٩١٨م في القصيباء أثناء حملة ابن سعود الأولى ضد حائل. كان القاضي هو محمد بن

(١) الصواب أنه سليمان بن عبدالله بن جبرين من القويعية وليس من الرياض. (المراجعون).

الشيخ، اسم العائلة هذا يدل على أنه سليل مؤسس الدعوة السلفية، الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الذي لا يشبهه هذا الحفيد إلا في القليل. كان ضعيفاً ومصاباً بالأنيميا (بفقر الدم)، ويتحدث بصوت صديري ولكنه برغم هذا كان ذكياً، وكان شخصاً لطيفاً للتحادث معه. ولا يبدو بالتأكيد أنه مرتاح لمركزه المنفي في هذه المحافظة النائية، التي لم تكن حتى مرتبطة بلاسلكي في ذلك الوقت، مع بقية العالم.

كان ابن عبيكان أنيقاً في تخير ملابسه وكان جميلاً بشكل مدهش مع صورة جاذبية إغريقية ولحية سوداء معتنىً بها تغطي جانبي الوجه والحنك. كان كرمه نموذجاً للأحسن في شبه الجزيرة العربية، وكان يبذل أقصى إمكانياته ليجعل إقامتنا مريحة إلى أبعد حد. كان مصراً علينا أن نشغل منزلاً لأجل أن ننال راحة أكثر، ولكنه رضخ لتوسلاتي وسمح لنا بأن ننصب معسكرنا في مزرعة النخيل، والتي وضعها تحت تصرفنا، كانت مزرعة قريبة من القصر ورائعة.

عدت إلى المزرعة للراحة بعد الغداء الممتاز الذي قدم لنا عند نهاية هذه المقابلة الأولى مع الأمير. لقد سمح لي بالمناسبة أن استمتع بأخذ حمام في غرفة حمامه الخاصة الملاصقة لغرفة جلوسه الخاصة، المؤثثة في رفاهية، والمفروشة بالسجاجيد والمزينة بتصميمات هندسية بأحبار وألوان مختلفة على كل الجدران. هذا الضرب من الزخرفة مميز للبلاد حول أبها وهو عادة من اختصاص النسوة في تلك الأجزاء، لا بد أن يكون بعضهن فنانات أصيلات. تم تزيين هذه الغرفة بواسطة فتاة من الرقيق جلبها الأمير عبدالله بن معمَّر من أبها عندما كان حاكماً هناك، وبلا شك كان هو ومن جاؤوا بعده يملأون أوقات فراغهم في هذه الغرفة في دعابات لطيفة. سنرى الكثير من هذه الزخرفة أثناء تحركنا تجاه الجنوب.

نمت في العراء تحت ظل شجرة نخيل كبيرة منتشرة وعليها ثمر عظيم أخضر غير مستوٍ وهو يتساقط من حولي منها ومما جاورها من أشجار وله صوت مكتوم، ثقيل حينما يرتطم بالأرض. لفت هذا نظري لغرابته لأن تجربتي تؤكد لي أن ثمار البلح لا تتساقط ولو كان ناضجاً. ولم أجد سبباً يفسّر لماذا يتساقط الآن وبهذه الطريقة وهو لم يزل أخضر؟ عرضت هذا الأمر على خبير في وقت لاحق في اليوم نفسه، فأخبرني أن بعض أنواع الحشرات الضارة كانت هي المسؤولة عن هذا التساقط، وأن هذه الحشرة أصبحت وباءً في ذلك الموسم في بيشة، حيث لا يتوقع أن ينضج البلح قبل شهر يوليو. بيعت في هذه الأثناء كميات كبيرة من هذا البلح المتساقط قبل أوانه في الأسواق وتم شراؤها بشغف. التهمها رفاقي بشره شديد ولكني وجدتها بلا نكهة.

كانت الثمار من الصنف الذي يسمى صفري. تناولنا بالمناسبة أول إنتاج لعنب هذا الموسم وفي هذا اليوم بالذات في بيشة، ولكنها أيضاً كانت غير ناضجة وحامضة بعض الشيء. كما أخبرت بأن الخوخ لا ينجح في هذه المنطقة برغم المحاولات التي تمت لتشجيع زراعته. يُزرع الليمون على نطاق محدود، غير أن تربة وادي بيشة بصفة عامة لا تبدو مناسبة لزراعة أشجار الفاكهة، غير التمر. تنمو الطماطم والبامية -أصابع السيدة- بسهولة، ويوجد الزعتر في معظم الحدائق. كان المحصول المفضل علفاً للجمال هو البرسيم، إلى جانب القمح والشعير، والدخن (الذرة).

يظهر الفقر والكآبة هنا على المزارعين كما لاحظت في ديلمي. كان عمق الماء هناك بالمناسبة في الآبار حوالي ثماني قامات، وكان الجزء الأعلى من الصهريج منغمساً عبر كثافة معتبرة من الطين حتى أنه يصل إلى طبقة صخرية رفيعة يوجد

الماء في أسفلها عند عمق قامة واحدة أو قامتين في الطبقة الحصوية ويوجد الماء هنا في الروشن على بعد عشرة أميال أعلى الوادي، عند عمق عشرة قامات أو إحدى عشرة قامة، علماً بأن البئر الموجودة في مزرعتنا كانت شاذة بوجود الماء فيها عند عمق ست قامات فقط.

كنا محظوظين في توقيتنا لزيارة بيشة في منتصف الأسبوع. ذلك لأن سوق الروشن الأسبوعي. يقع أيام الأربعاء (سوق الأربعاء)، بينما يكون السوق في نمران المجاورة يوم الخميس (سوق الخميس). يُعقد سوق الروشن في فترة متأخرة من بعد الظهر، بينما يستمر سوق نمران طيلة اليوم. وعليه، فقد عدت للقصر، بعد فترة راحة، لأجد الأمير جالساً في أبهة ومعه موظفوه الرئيسيون، والعديد من أعيان البلدة، على طاولة طويلة من الطين خارج القصر في ظل جداره الأمامي، كما هي عادة النجديين.

كانت مناشط السوق الأسبوعي على أشدها في الساحة الواسعة، كما كان نشاط مجلس الأمير، ومن حين لآخر، يتجه فرد أو مجموعة أفراد من داخل الحشد الذي كان كبيراً، نحو الأمير ليعرض شكواه أو يعرض بعض الالتماسات. كانت كل حالة تعالج ويقطع فيها في التو واللحظة وعلى مرأى ومسمع العالم، وفقط في الحالات التي لا يمكن علاجها بهذه الطريقة فإن الأمير، يوصي أو يوجه المدَّعي بأن يرفع الأمر إلى القاضي. يخصص يوم سوق الروشن تقليدياً لتنظيم المواشي، برغم أنني رأيت مجموعة من النسوة يجلسن القرفصاء على الأرض وهنّ يعرضن صحافاً للبلح الأخضر موضوعة أمامهن، لعله ضرب من الوجبات الخفيفة لمن يحتاج إليها. أما الجمال، والأغنام، والماعز، وبعض الأبقار فكل هذه قد

اختلطت مع البائعين والمشترين، بينما يتحرك وكلاء البائعين يعلنون آخر مزايدة أو مناقصة تم عرضها حول هذا الحيوان، أو ذاك.

تحول الحديث في حلقة الأمير بغموض إلى موضع البحث عن الذهب في المناطق المجاورة لبيشة، وأخبرني الأمير أن الرجل التابع لشركة المناجم الذي وصل إلى بيشة عن طريق رنية، لم يكن إنجليزياً بالمرة، ولكنه كان عربياً يعمل سكرتيراً – مترجماً تصحبه مجموعة صغيرة من الهنود. لقد ذهبوا إلى موقع الطبقة البارزة فوق سطح الأرض الكوارتزية والتي تسمى عبلا (Abla) بالقرب من جحيفة، وهي رحلة تستغرق يومين بالجمال، ناحية الغرب من بيشة. لم تتمكن السيارة من إكمال الرحلة، برغم أنها تحركت من بيشة، وعادت الفرقة على ظهر الجمال. تحرك رجل إنجليزي في هذا الأثناء، واسمه السيد لاركن Larkin تابع للشركة ومعه فرقته راكبين الجمال، من الطائف وليس من تربة لدراسة البلاد الواقعة في الطريق إلى أبها. لم تصل إلى بيشة أي تقارير عن هذه الحملة بعد.

كان أكثر الحضور المستمعين اهتماماً بهذه القصة هو سعيد بن كدسة، تاجر بيشة الرئيس، الذي دعاني فيما بعد لزيارته في منزله. سرنا راجلين عبر الروشن، لكي نصل إلى منزله، وكان الشارع عريضاً وغير مميز، مارين بمنزل كبير، كان قد امتلكه حديثاً وسكنه، ولكنه باعه مقابل ٩٠٠٠ ريال بعد أن شيد لنفسه بيتاً كأنه القصر في عام ١٩٣٤م، عند حافة مزرعة نخيل ممتازة تحتوي على حوالي ٤٥٠ نخلة، اشتراها كلها بمبلغ ٥٠٠٠ ريال. يقع هذا المنزل إلى مسافة فيما يلي النهاية الغربية للبلدة. كما أنشأ فيه حديقة على مستوى طموحي، لأشجار الفاكهة وللخضراوات، داخل سور محيط بها ليزيد من أسباب الراحة، غير أن هذا المشروع

كان لا يزال في مراحله الأولية. كان المنزل يتكون من طابقين وكان مقسماً إلى قسمين: أحدهما، بالطبع، كان للنساء. يوجد فناء كبير، غير منظم، أمام غرفة الاستقبال الرئيسة لحفظ أفضل إبله، وبعض الأغنام، وفرس أُبّيٍّ، في اسطبله، وكان على حق في أن يفخر به. كانت الغرف الأخرى، من حول الفناء، لتخزين بضاعته، ذلك لأنه كان تاجراً على مستوى كبير. كانت غرفة الاستقبال كبيرة وبسيطة، كما أنه أخذني إلى الطابق الأعلى حيث غرفة ذات رسوم خاصة وذات حصائر غنية، وبها أعمدة من خشب الأثل، مزخرفة لدعم السقف المكوّن من شرائح بسيطة بلا طلاء، ومن الخشب نفسه. كانت الأعمدة منقوشة بتصاميم بسيطة ومطلية بالأسود وكانت النوافذ واسعة مصنوعة من الخشب -لم يستخدم الزجاج في بيشة بعد-، وكان الباب مطلياً بالأسود أيضاً.

لقد كان المنزل في تضاد مدهش مع جدران منازل جيرانه العارية، البسيطة، عديمة النوافذ، والجافة ويعلن منزله هذا عن أن مالكه رجل ذو أفكار حضارية. تعيش زوجاته الأربع في الجزء الآخر من المنزل، والذي لم أره بالطبع، كان لكل واحدة منهن شقتها الخاصة. ولكنهن فيما بينهن، أنجبن ابناً ذكراً واحداً، كان يراجع المدرسة المحلية في هذا الوقت.

هاجر سعيد إلى بيشة عام ١٩٢٠م من بلاد غامد في مرتفعات الحجاز حيث يعيش والده في العاصمة الظفير، حيث كان الحاكم في هذا الوقت هو تركي بن ماضي، من سدير، كانت خدمات البريد تصل كل أسبوعين من الطائف، وكانت الخطابات إلى بيشة تصل عادة عن ذلك الطريق، إلاَّ إذا حدث أن كانت هنالك سيارة متجهة إلى الجنوب. لا توجد سيارات في بيشة ولا يوجد جهاز راديو واحد.

لقد نجح سعيد بن كدسة اقتصادياً، على أي حال، واستمتع بضربة حظ حديثاً. في السابق كانت بلدتي وادي الدواسر والسليل تؤديان دوراً مهماً كأسواق داخلية لاستيراد البن من اليمن، وتوزيعه في مدن ومناطق نجد. ولكن حدث أخيراً ولأسباب أميرية وجيهة، تم اختيار بيشة لتكون المركز الوحيد لاستيراد البن وتوزيعه لكل من نجد والحجاز. وقد تم منع مرور قوافل البن إلى وادي الدواسر. تسبب هذا في إحضار طحين كثير لطاحونة سعيد ولطواحين مواطنين قليلين آخرين قريبين منه من منطقة غامد وهم الذين يكوّنون النخبة التجارية لبيشة. لقد كان سعيد بحق رجلاً لطيفاً ذا أفكار متطورة ويبدو أنه محبوب بصفة عامة في المنطقة. فهو إلى جانب تجارته العادية، وكإضافة جانبية، مضارب في سوق العبيد، وكان نوع ما يعرضه من سلع معروف في كل مدن الجزيرة العربية.

كان معظم سكان الروشن، باستبعاد عنصر غامد، من بني سلوم التابعين لشهران، بينما كان سكان نمران من معاوية، وقد أعطت اسمها أيضاً للسهل الكبير الممتد شرقاً من الروشن وسلسلة ملحة على بعد خمسة أو ستة أميال. كان سوق الخميس في نمران، الذي زرته مع سعيد، الذي كان راكباً فرسه، بينما كنت أقود سيارتي، أكثر إثارة للاهتمام مقارنة بأحداث ظهر اليوم السابق في الروشن. كان العنصر الرسمي غائباً تماماً، وكان الحشد ليس فقط كبيراً، ولكنه كان أكثر مرحاً. لقد عقد السوق في مساحة كبيرة مربعة، مبنية خارج البلدة، وتحيط بها تماماً صفوف من متاجر مبنية من اللبن لا يزيد ارتفاعها عن ستة أقدام. كان للسوق مسجده الخاص، بالكاد أكثر ارتفاعاً من مستوى المتاجر، ويبدو – بالتأكيد – كأنه صف من المتاجر، أكثر منه مكاناً للعبادة، لأنه ليس له مئذنة. توجد بين المسجد

وخلفية المتاجر، على الجانب الشمالي للسوق المسوَّر، ساحة مكشوفة أخرى مخصصة لسوق النساء وقد رأيت فيها عدداً كبيراً من النسوة يعملن بائعات متجولات ويعرضن للبيع أشياء مثل الحبال، والحصائر، والفلفل، والبهارات، والتمر. وتوجد على الجانب الشرقي للسوق ساحة أخرى لسوق المواشي، حيث تباع الجمال عن طريق الدلالة، ذلك لأن الأسعار تتفاوت من ٢٠ إلى ٨٠ ريالاً في هذا الوقت، فإن ٢٠ إلى ٢٢ ريال تعادل جنيه استرليني ذهبي واحد. وتباع الأغنام بسعر ريالين أو ثلاثة ريالات وقد رأيت ثوراً جميلاً ذا سنام يباع مقابل ١٤ ريالاً فقط. وقد استأجر دليلي، القادم من رنية، جملاً ليعود به إلى هناك بقيمة ٣,٥ ريالات ونصف الريال فقط، وقد استأجر الرجال الذين صحبوني من الخرمة، جملاً بمبلغ ثلاثة ريالات في رنية، لأجل رحلة العودة. يبدو أن الأسعار كانت منخفضة بصورة مدهشة في كل شيء[١].

لفت نظري أكثر من غيره، ذلك المنظر المعروض على شكل رسوم متحركة في السوق، حيث تجتمع عناصر متعددة لسكان البلدة، ورجال من جبال الحجاز، وأناس فقراء، كأن الواحد منهم – حقيقة، هو أفقر الفقراء. يبدو أن سمعتي في المناشط الخاصة بالتاريخ الطبيعي قد وصلت إلى الحشد، حيث إنني حينما كنت أقوم بالتقاط الصور الفوتوغرافية للمنظر أعلاه، كنت أجد نفسي محاطاً برجال متحمسين يسألونني كم سأدفع لهم مقابل ثعبان أو شيهم أو ذئب أو وعل. أما النسوة فإنهن كنَّ يحمْن على حافات الحشد، يظهر أنهن كنَّ متشوقات لرؤية

(١) لقد ازدادت الأسعار، بالطبع، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المؤلف).

أجنبي بينهن، وكان بعضهن سيدات شابات وكانت أعينهن لامعة، ولكن معظمهن كن متقدمات في السن، ومهزولات ومتعبات مع كفاح الحياة. يلبس معظمهن زي السَّمق، ولكن عدداً كبيراً منـهن كنَّ يرتدين الأحمر، والقليل منهن قد ارتدين ما لونه أصفر، غـير عادي، وجذاب. كلهن كن يرتدين الحجـاب الإسلامي الأسود الذي يغطي الرأس والوجه ويمتد إلى الصدر. توجـد في سوق الرجال بضائع تباع بالقطعة وبكميات وافرة، إلى جانب أشياء مصنوعة محلياً من الجلد، بالإضافة إلى ما يعرضه البقال وما شابه ذلك. كـان منظراً مدهشاً غير أنه تذوق مبدئي لما يمكن أن نراه، من النوع نفسه، ناحية الجنوب.

قمت بزيارة سليمان الروَّاف في أحـد الأيام، بعد تناولي الإفطار مع الأمير، وكان قـد حدثني عن نظام الضرائب الذي كـان يسيطر عليه. إلى جـانب الرسوم التي تدفع على البن المستـورد وغيره من البضائع التي تـرد من اليمن، ذكر لي أن الضرائب المحلية تنحـصر في الزكاة التقليدية، تجـبى عادة في النوع برغم أنه يمكن قبول النقد المالي في بعض الأحـوال. يؤخذ العشر على التمر ومحـاصيل الحبوب الشائعة- (قمـح، وشعير، ودخن). يُقدر المحصول في كل حـالة بواسطة الخبراء الذين يرتبون مع رئيس القبيلة أو القرية كيفية تسليم نصيب الحكومة في الروشن، مقـابل تعويض مالي. يبـاع هذا الجزء من المحصول لأعلى عـرض، إلاَّ إذا أمرت الحكومة المركـزية بجمع الحـبوب لأجل حملة عـسكرية أو ما شـابه ذلك. تقبض ضريبة الجـمال نقداً، بينما في حـالة الضأن والماعـز فإنه يتم أخذ ثـلاثة حيوانات لكل ١٢٩ - فقط واحد على أربعين من حجم القطيع.

اغتنمت فترة إقامتي هنا لأقوم بـجوله في الواحة وما يجاورها، لملء فراغات في استكشافاتي السـابقة. ينبعج الوادي، بالفعل، في السهل من السـفوح الجبلية

على بعد ميلين ونصف الميل جنوب غرب قرية الروشن ويقف فوق هذه، وعلى حافة المجرى قصر صفار المنعزل ومجموعة النخيل الصغيرة صفن. من الروشن توصلت إلى اتفاق للحصول على خدمات دليل جديد، يسمى فايز ومن فخذ المعاوية إذ أن له معرفة كبيرة بتضاريس البلاد المحلية ولكنه كان قليل الإدراك بالطيور.

كانت هنالك مجموعات من نخيل أخرى إلى جانب مجموعة الروشن، نمران، نغيلة. كانت المزدهرة منها، هي: مقطر وبقيرا، إلى جانب تل عارٍ منخفض يسمى هضيبة الذي يقال إنه كان موقعاً لمستوطنة قديمة (بني هلال). كانت جبلة مزرعة نخيل أخرى صغيرة، بينما يقع تقريباً في مقابل نمران، الشريط الطويل للنخيل الذي يتبع قريتي أبي شوك وحرف الصغيرتين.

توجد بعيداً عن الساحل، ناحية شرق الجنوب الشرقي، مجموعة تلال حادة تسمى صويرة (مفرد صويرة)، كان أحدها من كوارتز أبيض، أو تقريباً ورديا، والذي اعتقدت أنه منجم الذهب المحتمل! كان شاخصاً إلى ارتفاع ٤٠٠ قدم فوق مستوى السهل، في شكل هرمي كامل، ويبعد إلى مسافة سبعة أميال من مخرج الوادي ومن التلال السفحية. كان الصعود فيه صعباً ولكنني وصلت إلى القمة قبل دليلي الشاب الذي اعترف بتفوقي عليه وبإعجاب. كان أحد الصقور الداكنة اللون يحلق فوق القمة حين وصولنا إليها ولكنه سرعان ما هرب عنا، والشيء الوحيد الذي عثرت عليه أثناء بحثي عن عش محتمل بين الصخور البيضاء كان ريشة واحدة.

كان المنظر عند القمة واسعاً جداً، ونظرت بعيداً جهة الجنوب، فوق الطريق الذي سنسلكه غداً، في بلاد لم يرها أوروبي من قبل أبداً. كان أبرز ما ظهر في

هذا المنظر هو سلسلة جبال أبط، ذات القمة المسماة طويل العبد البارزة، إلى جانب سلسلة جبال صويرة التي كانت مطوقة للمنظر من ناحية الجنوب. ويقف قريباً منا، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال قوس تلال ملحة الذي يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ويرافقه خشيم الذيب إلى جانب كتلته الصخرية على مسافة نحو البعيد، وتقع إلى يساره.

لا يزال من الممكن رؤية صدعه بعيداً ناحية الشمال الغربي، بينما اكملت تلال مطوَّقة السفحية ومعها كتل مرتفعة أخرى من وقت لآخر، الحاجز من ناحية الغرب من سويرة.

تقع بيشة في الوسط وتقع مزارع نخيلها خلف سهل عشبي شجيري هو حمى أو محميات رعي تابعة للحكومة. تناولت العشاء مع سليمان الروَّاف في ليلتي الأخيرة، ورافقني إلى معسكري للاستماع للأخبار والاستمتاع بالموسيقى. استمعت إلى نتائج سباق الدربي ليلة الأمس! نمت تلك الليلة على أنغام موسيقى سحب مياه الآبار والتي تعمل بواسطة جملين أو أحياناً ثلاثة جمال، كان الجميع في صباح اليوم التالي، على استعداد للمرحلة التالية من الرحلة.

تناولت ومعي إبراهيم بن فرج طعام الفطور مع الأمير الذي أخبرني أنه قد بدأ حياته تاجراً للؤلؤ على مستوى بسيط ودون نجاح كبير، بسبب التغيرات الكبيرة التي صاحبت الحرب العظمى[١] التي أثرت كثيراً على سوق اللؤلؤ العالمي ودفعته نحو الأسوأ. جاء سليمان الروَّاف مسرعاً وفي آخر لحظة للوداع، جالباً معه ثلاث

(١) الحرب العظمى أو الحرب العالمية الأولى استمرت من ١٩١٤-١٩١٨م. (المراجعون).

من الماعز الحلوب كهدية وداع. كانت فكرة كريمة، ولكن، ربما من حظ الماعز، أنه كان لا يوجد لهما موقع في سياراتنا.

وهكذا انطلقنا نحو الجنوب. في اليوم التاسع والعشرين من مايو، وبذلك نكون قد التزمنا تماماً بالأحد عشر يوماً التي وضعتها في برامجي الخاصة بهذا الموقع. وصلنا إلى تل يسمى شهلة يقع على بعد مسافة ستة أميال من بداية انطلاقنا، وتوقفنا عنده، ويتكون من صخور بللورية مزرقة اللون الأبيض مع شقوق نحيلة كالخنادق من البازلت. يمكن رؤية قصر الأمير، أمامنا ناحية الشمال، كما تضمنت التلال المكوّنة في ترتيبها شبه الدائرة، والتي تقع أمامنا كتلة هضب المنابه التي تقع إلى يسارنا، بينما يقع إبط إلى الأمام من موقعنا وتقع مطوَّقة إلى اليمين. توجد في هذا الاتجاه الأخير تلال منخفضة يمتد فيها مجرى بيشة الذي لا نراه غير أنه ليس بالبعيد.

عبرنا بعد عشرة أميال قاع رافد عظيم هو هرجاب، الذي يأتي من الجنوب وينحرف هنا انحرافاً حاداً ناحية الغرب، في ممر رملي مكسو بكثافة بالشجيرات والحشائش والجنبات وحتى بعض الأشجار. توجد مزرعة نخيل صغيرة تسمى حزيمي عند نقطة التقائه مع وادي بيشة، قليلاً إلى الشمال الغربي من موقع عبورنا، وتوجد إلى أسفلها مزرعة مماثلة في مجرى بيشة تابعة لمدرا. تقع ترج بالقرب من الملتقى على جانب الوادي وعلى الطرف الآخر، وتوجد فوق الملتقى، نخيل حيفا، واعر وسحام، بهذا الترتيب وباتجاه أعلى الوادي. يأتي وادي حرجب إلى هذه النقطة عبر فجوة في تلال بني منبه إلى يسارنا.

يستمر طريقنا جنوباً فوق ممر رملي لنعبر لساناً منخفضاً لسلسلة مريّش المعترضة ثم إلى الدلتا العريضة لشعيب رنوم، وهو أحد روافد هرجاب وهو كثير

الأشجار خاصة شجيرات الشار الطويلة والتي تكثر فيها طيور التمير بأعداد كبيرة وهي طيور مغردة. تتبعنا، فيما يلي الدلتا، الجانب الأيسر لرافد آخر هو شعيب سحي والذي يتحد مع حرجب أعلى دنوم. كل شيء سار كما يرام، إلاَّ من حادث ثقب في إطار إحدى السيارات، في بلاد قفرة كئيبة. كنا قد أزعجنا بحركتنا طائر حجل الصخور التي فرت من أمامنا تتبعها ذريتها، كما كان تواجد طيور آكل النحل واضحاً للعيان.

كنا مطوَّقين طيلة الوقت بسلسلة سحي المنخفضة من كل الجهات، وقد تتبعناها مسافة ثمانية أميال حينما انحرفنا إلى ناحية اليمين نحو رافدة شعيب ميضر الذي يهبط من مستجمع الأمطار لبيشة – هرجاب على مسافة من هذا الموقع، وإلى ما يلي أرض مرتفعة تسمى وشعة. كان عرضها حوالي ٣٠٠ ياردة ولكنها مغطاة بالشجيرات والحشائش. ولما كانت قمته مغلقة بسلسلة جرانيتية من جلاميد، فقد اجتزنا عن ممر منخفض، ضيق، للهبوط إلى شعيب الزو الذي يبدأ في وشعة، ويلتقي بحرجب بالقرب من تل يسمى هضيبة.

هرب من أمامنا سرب صغير من طيور شاكور محلقاً فوقنا ليصل إلى بئر ابن سرّار، حيث خطَّطنا لقضاء الليلة. لقد قطعنا مسافة ٣٦ ميلاً من الروشن وقد هبطنا، دون شعور منا، حوالي ٨٠٠ قدم. لا بد وأننا قد كنا عند ارتفاع ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. كان هنالك بئران، إحداهما جافة غير أن لها فوهة رهيبة قطرها ١٥ قدم ومبطنة بالحجارة، توجد كمية كبيرة من المياه في البئر الثانية، وهي ضيقة ولها صهريج قطرها أربعة أقدام، أيضاً مبطنة بالحجارة، وكان عمق الماء فيها عند أربع قامات. ينتمي هذا المشرب إلى بني منبه وهو قسم من شهران، وبناء على ما ذكره دليلنا

-القادم من بيشة- وهو من أبناء شهران يسمى حمود من فخذ واهب فهي بئر ضاربة في القدم. ذكر لنا ببساطة أن البئر قد تم حفرها وبناؤها بالاستعانة بالفيل.

إذ أسند حفر البئر إلى أنه من إنجازات بني هلال، فإن هذا القول سيؤخذ ليدل على أنه لا أحد يعلم من الذي حفر هذا البئر ومتى تم ذلك. ولكن الإشارة إلى الفيل حددت التاريخ. كنا حقيقة على الدرب المشهور، درب الفيل، الذي سلكه أبرهة وجيش الأحباش في الاتجاه المعاكس عام ٥٧٠م، العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان هدفه هو الهجوم على مكة. حسب علمي، فإن تلك الحادثة هي آخر مناسبة شوهدت فيها الأفيال في الجزيرة العربية. وعليه، فإن هذا البئر لا بد وأن يكون عمرها الآن ١٣٦٦ سنة، وربما يرجع تاريخه إلى الأيام المبكرة لملكة سبأ التي استخدمت أيضاً الأفيال في سفرها إلى سليمان، حوالي ٣٠٠٠ عام مضت. يشير العرب إلى درب الفيل هذا أو إلى من افتتحه بأسد كامل وهو التبع، حاكم مشهور على اليمن حوالي ٤٠٠م والذي تحت اسمه، تم توضيح عدد من أقسام الطريق لي في عام ١٩٣٢م أثناء رحلتي الشمالية من بيشة. لقد كنا نتبع درب الفيل القديم في هذه الرحلة الجنوبية فوق كل المسافة وحتى هذا الموقع، لأنه لا يوجد طريق ملائم للحركة الثقيلة بين حرجب وبيشة. يقال إن هذا الدرب من هذا الموقع، يتجه أكثر نحو الجنوب الشرقي، عابراً حرجب عند بئر آخر تسمى عليان ثم يستمر على الطريق الصحراوي بعيداً عن هذه البلاد التلالية السفوحية الصعبة.

كانت الليلة مضيئة بالقمر ولا توجد حشرات كثيرة، عدا البعوض، بالقرب من البئر. ولهذا السبب فقد نصبنا معسكرنا بعيداً تماماً عن البئر، عند طرف

الوادي المسمى، شعيب البئر والذي يتصل في نهاية الأمر مع شعيب الزو في طريقه إلى حرجب. بدأنا رحلتنا في اليوم التالي بالتسلق إلى قمة جبل ارتفاعه ٥٠٠ قدم يسمى أم ومر على أقل من ميلين ناحية الجنوب من معسكرنا. كانت البلاد المحيطة، لسوء الحظ، مغطاة بالغمام وكانت العلامات الأرضية غير واضحة. كانت البلاد المعترضة صخرية ومقطعة إلى متاهة من مجاري التصريف، كان أكبرها شعيب تلغ عند سفح أم ومر وكانت كلها تجري ناحية هرجاب.

لا يوجد شيء مثير للاهتمام في هذه البلاد المحيطة، باستثناء اللمحات التي التقطناها للصحراء، بعيداً ناحية الشرق، إلى ما يلي هرجاب مع مواقع مرتفعة هي: رهوة، سنقة، حضرين، نمرة وحفيلة في مجملها مكوَّنة حاجزاً من أرض مرتفعة تفصلنا عنها. قمت بصيد الطيور في هذه المنطقة ومن حولها، وأدخلت إلى الكيس طائر حجل ودرسه، بينما كانت طيور القداف مروحية الذيل، والخطاف وآكل النحل وطائر الشمس متوافرة. لم نلحظ أي علامات للحياة حول البئر أثناء الليل. ولكننا رأينا قطيعاً من الضأن من قمة أم ومر، كانت بالفعل تشرب من هناك. لا بد وأن الرعاة كانوا قريبين منا بما فيه الكفاية ليحسوا بوجودنا ولعلهم ربما لم يكونوا راغبين في الاتصال بنا. إذ ربما دار بخلدهم أننا جباة الزكاة.

كان رفاقنا قد استقروا لإعداد طعام الإفطار، حينما كنت أنا وحمود نلقي نظرة عامة على أم ومر، اشتركنا معهم في تناول الإفطار قبل أن نواصل الرحلة. كنت قد قمت بجمع كمية كبيرة من النباتات من الجبل، وهذه يجب أن تضغط وتعلم. عبرنا الآن مجرى تلع ورافده كضان لنجد أنفسنا في ممر صحراوي تنتشر من فوقه في كثافة جلاميد جرانيتية كأنما قد جلس في هذا المكان عملاق هنا وبدأ

يفتت الجبل إلى قطع صغيرة ويقذف بهـذه القطع الصغيرة في كل مكان. اجتهدنا للخروج من هذه المنطقة، لنصل، بعد ثمانية أميال إلى الخط الفاصل بين نظام تلع الذي كنا فيـه، ووادي السريِّن وهو رافد ينسـاب شرقاً إلى هرجاب. كـان كل ما حولنا تلال وتلال أكثر وأكثر، غير أن أهم ما يمكن ذكره هنا هو كتلة باح التي تقع إلى الجنوب الغربي وعلى بعد ١٢ أو ١٤ مـيلاً، إلى حيث ينساب مجـرى بيشة، بناء على ما ذكـره لي دليلي. يحتوي نظام تصـريف السريّن على أنهار، مـتوازية عديدة ويقع وراءه ذلك الوادي المزدوج الذي يسمى سيلين وفيما يلي هذا أيضاً تقع مختبية وكذلك معمَّر وكلها خطوط تصريف تنحدر من التلال المنخفضة إلى الغرب لتتـقارب في نهاية الأمر فـي الخط الرئيس للسرين قبل اتحـادها مع هرجاب. تقع فيما يلي هذا الوادي، بلاد يكثر فيها الجرانيت وعلينا أن نقطعها فهي بلاد صعبة، خشنة وجرداء ولكنها منحدرة إلى الأمام ناحية شعيب كتنه وهو رافد آخر لهرجاب يمكننا رؤية واديه الذي بدا مـرصعاً هنا وهناك بأشـجار ضخـمة، وعلى بعـد ميل واحد، ناحية الجنوب الشرقي.

كان سفرنا صعباً في كتنه وذلك لأن قـاع الوادي كان طينياً، ومشققاً بواسطة السيول، وكان مغطى بالجنبات الخفيضة. تركـنا كتنه بعد فترة وجيزة وتتبعنا رافده شعيب رجعال متجهين نحو كتلة جرانيت بارزة جداً تسمى ضور ابن سرار. أصبح سيرنـا هنا صعباً جـداً وفي بعض المناطق كان طريق السيـارات قد محته الـسيول تماماً. استـدرنا حول تل الجرانيت، عندمـا اقتربنا من القمـة، وذلك عند منتصف الطريق، مارين بكتـلة جلمود ضخمـة ساقطة على الأرض تسـمى جلبة، لندخل بعدها إلى وادي شعـيب سمران الثانوي الذي يرتفع إلى كـتلة ضر ومن ثم يجري مباشرة إلى هرجاب.

يقال إن هنالك بـئراً قديمة اسـمها كـومخة، في مـوقع ما في الصـحراء إلى الشرق معادلة لهذا الموقع وعلى طريق درب الـفيل وفي وادٍ يسمى نهر ينساب إلى المسيرق.

قادنا وادي آخر صغـير يسمى حشة إلى حافة سـهل واسع ينحدر إلى الأمام حيث يوجد خط تصريف كبيـر يسمى خليل وتحيط به تلال عديدة مكوَّنة نوعاً من الأحواض المستديرة وكـان منفذه تجاه هرجاب. مررنا كذلك بـزوج من خيام البدو على حافة هذا الممر، فيهما بعض نسوة وبعض كلاب فقط، وقد جلب لنا كرمهن المعروف اللبن، وفي المقابل دفعنا إليهن بعض النقود. كان رجالهن في المراعي مع الأغنام، ووجود هذه الخيـام أفادنا بأننا أصبحنا نقترب تدريجـياً من المساكن. يقع بعيـداً ناحيـة الجنوب الغربـي جبل منعـه في سلسلة الحاجـز الرئيس في بلاد بني شهر، لا عـلاقة لهذه القبيلة مع قبـيلة شهران. يقع جبل باح الآن ناحيـة الشمال الغربي، بينما كان تل حـرب الذي يقع قليلاً ناحية الشمال الغربي، مـعلماً أرضياً آخر على الجـانب القريب لمجرى بيـشة، كذلك كـانت قمة قـمعة ناحـية الجنوب الغربي، كمـا ظهرت إلى البعيد نقـاط سلسلة الحجاز الرئيسـة التي تدعى لحية أو ضحية. كان النسوة اللائي أكـرمننا ينتمين إلى فخذ كود التابع لشهران من منطقة واحة خيبر.

امتدت أرض ممر خليل إلى مـسافة ثمانية أميال عـبر طريقنا وانتهى إلى أرض سهلة مـررنا من فوقـها لنواجـه بوادي حرجب نفسـه، وبكل عظمتـه فهـو غابة لأشجار سدر حقيقية تحتل مـساحة كبيرة على جانبي بطن السيل الرملي العريض. عسكرنا هنا، تحت الأشـجار، بعد أن سافـرنا لمسافة ٤٠ ميلاً من بـئر ابن سرار، وحوالي ٩٠ ميلاً مـن بيشة. لقد كان المنظر -حقـيقة- جميلاً وغـير عادي. يبدو

الوادي هنا منبسطاً على الجانبين ليكوِّن بصفة رئيسة غابة ضخمة من أشجار السدر مع وجود عنصر متواضع من أشجار الطلح. كانت هذه البقعة جنة شائعة للطيور التي تعود للأنواع نفسها التي شاهدتها في عشيرة، كما سمعت أثناء الليل الصرخة المألوفة لطائر الزقزاق -يسمونه محلياً سماق أو كروان-، والذي كنت قد لاحظته عند بئر ابن سرَّار. كان ارتفاع أشجار السدر ٣٠ أو ٤٠ قدماً وكانت مورقة بكثافة. لا بد أن يكون ارتفاعنا هنا ١٤٠٠ قدم أعلى من بيشة وربما ١٢٠٠ قدم فوق ملتقى حرجب - بيشة، إلى ارتفاع ١٣ قدماً لكل ميل نقطعه في المتوسط.

كان وادي بيشة، وعلى مسافة ١٢ ميلاً ناحية الغرب، معلَّما بنقطتين من سلاسل جبلية منخفضة تسميان ثمد يجري عبرهما الوادي، كما يُرى إلى البعيد ذلك الخط الشاحب للجبال العالية ذات القمم التي ورد ذكرها من قبل. سافرنا مبتعدين عن وادي هرجان وذلك حين قمنا بمواصلة الرحلة في آخر صباح، لآخر أيام شهر مايو، عبر رافد يسمى عنت وهو ينساب متعرجاً في اتجاه جنوبي. كان عنت مسيلاً، موحشاً، مغلقاً، صعب المراس، غير أنه بَعد مسافة حوالي خمسة أميال، انفتح على أرض واسعة خالية من النبات ما عدا عدد من الأشجار التي تجمعت عند ثقوب الماء عند فضية.

لم تكن هذه الآبار حقيقة، بل كانت زوجاً من ثقوب قد حفرت في الوادي إلى عمق قدمين وكانتا ممتلئتين بالماء. كان هنالك قطيع كبير من الأغنام يشرب من عندها في ذلك الحين، وكان الرعاة كعادتهم، كرماء باللبن، الذي كان منعشاً جداً، بخاصة بعد قيادة شاقة للسيارات أعلى هذا الوادي. خرجت شاحتنا، عند هذه النقطة، من مسيل عنت لنتتبع الرافد عطيفة إلى سفحه على مسافة ميل أو ميلين، ثم عدنا إلى دخول مسيل عنت في موقع آخر من مجراه، وجدنا أنفسنا

عند قمة مسيل عنت فوق مجموعة تلال تسمى أدمان تبعد حوالي ميل واحد من هنا إننا نقف على حافة مستجمع أمطار كبير الأهمية، ذلك لأن البلاد التي تقع خلفنا تصب في هرجاب ومنه في نهاية الأمر في وادي بيشة، أما الأرض التي أمامنا فهي منحدرة إلى أسفل، إلى شعيب دهابية، الذي ينساب إلى وادي نهر العريض، والذي يمكن رؤيته من الواجهة، أمامنا، والذي بدوره سيصب في وادي المسيرق الذي هو أحد روافد وادي تثليث، وهو الوادي الثالث وربما الأعظم بين الأودية الرئيسة في جنوب غرب نجد.

وصلنا الآن إلى الحد الفاصل بين بيشة وتثليث، ونستطيع أن نرى أمامنا بوضوح نخيل قضَّة وهي في وادي المسيرق. وتقع، في التلال الصعبة إلى الغرب من موقعنا، وبجوار هضبة تسمى ركيبة، القمة الحقيقية لوادي هرجاب ولا يبعد مجرى بيشة كثيراً منها. يتصل شعيب دهابية مع وادٍ على بعد ميلين ناحية الشمال الشرقي، ويجري وادٍ إلى سلسلة خسا وهناك يلتف ناحية اليمين إلى المسيرق. وتقع البئر القديمة كوماخه في مجراه، وقد ورد ذكره من قبل، وكنا مرة أخرى على درب الفيل القديم. يمكننا رؤية القمم الجرانيتية على حافة وادي المسيرق، وكان لبعضها أشكال غريبة، وهي على شريط ممتد من تجاه الجنوب الشرقي إلى الجنوب: مسقه -وهذه من ثلاث نقاط-، جمرة -ذات قمة مزدوجة مسطحة كالطاولة-، عمود شتبة وعدمان وثلاثتهم إلى الجنوب الشرقي. تقع كتلة شمران في الاتجاه نفسه، ولكن إلى البعيد، وهي سلسلة جبلية معتبرة إلى جانب الهرم الكوارتزي أم القصاص ذات القمة المسطحة وشعة المسطحة القمة كالطاولة أيضاً.

كنت أجلس، ومعي دليلي على كومة من الحجارة على أرض مرتفعة لتعليم اتجاه مياه فضية، أثناء قيامي بتسجيل هذه الملاحظات. كنا جالسين هناك لمدة من

الوقت، حينما -وفجأة ومن أسفل منا- طارت أنثى حجل مطنطنة. كنت، بالطبع، متأخراً جداً في استخدام بندقيتي، غير أن شقشقة ضعيفة صدرت من ركام الصخور نفسها التي نجلس عليها، حيث كانت هنالك ٤ أو ٥ فراخ مختبئة. وبصعوبة شديدة حررت اثنتين منها لتضاف لمجموعة عيناتي وكان ذلك كافياً للتعريف العلمي. كانتا من نوع السيسي الشائع في هذه المناطق. تحصلت كذلك على قنبرة صحراوية، بينما كنت قد وضعت من قبل وفي الأكياس من فضية ووادي هرجاب بعضاً من عصافير الصخور. ظهر في وادي هرجاب نوع من الطير محلي جديد إلى جانب الباز، والعصافير، والقنابر، وبعض الطيور الصغيرة النساجة. كانت هذه المقاطعة، في الحقيقة، أرض صيد للطيور مربحة.

يقع مسارنا الآن تجاه الجنوب الشرقي واخترقنا قبل فترة وجيزه شعيب دهابية وشعيب نهر وبالتتالي لنجد أنفسنا في بلاد ذات بروزات جرانيتية صعبة، مررنا فيها برعاة من واهب (شهران) بقطعانهم. إنه هو الفخذ نفسه الذي مررنا ببعض منسوبيه وأغنامهم عند موقع الشرب في فضية. عبرنا، في هذا الموقع، عدداً من روافد نهر بما في ذلك مسقه الذي توجد به بئر بالاسم نفسه تقع على بعد ميل واحد من الطريق، ناحية اليسار. يوجد إلى ما وراء هذه المسايل شعيب أثب وهو شعيب متعدد المجاري، ويهبط من جمرة ليتصل المسيرق بالقرب من نخيل قضَّة وتتبعنا، فيما يلي هذا، ومرة أخرى، مجرى شعيب حميته الذي يتحد مع المجرى الرئيس نفسه قليلاً إلى أسفل مع واحة خيبر، والتي ظهرت سريعاً أمامنا إلى ما وراء شعيب تلح، وهو رافد آخر لمسيرق. علينا أن نعبر خلال كتله تلالاً جرانيتية رهيبة تسمى غار وذلك قبل أن نصل إلى حافة الوادي، وقد قررنا التوقف عندها،

عند منتصف النهار، في صحبة بعض الأعراب ذوي القطعان من قبيلة كود، والذين انتشرت خيامهم وأغنامهم بين هذه الصخور العظيمة.

أصبحنا الآن عند الطرف الجنوبي لمحافظة بيشة. التي تتضمن كلا من وادي خيبر ووادي المسيرق. كانت كتلة الجرانيت هذه على ارتفاع أقل من ١٠٠ قدم فوق مستوى السهل، وقد يسرت لي مسحاً أولياً للواحة. كان عرض الوادي هنا ميلاً واحداً تقريباً، حتى حافة سلسلة جبال شمران التي ينبعج من خلالها مسيل صغير يسمى شدا داخل الوادي الرئيس في نقطة تقع ناحية الجنوب الشرقي. كان فم الوادي مغلقاً تقريباً بمزرعة نخيل صغيرة ولكنها كثيفة وبداخلها قصور قليلة. تكوّن هذه المزرعة قرية شع الصغيرة. يعرف الوادي الرئيس أعلى هذا الموقع باسم شعيب سليل، ويطلق اسم المسيرق محلياً على الوادي من خيبر إلى أسفل. هما في حقيقة الأمر وادٍ واحد. تتكون خيبر من مجموعة قصور منعزلة متفرقة في مزارع النخيل، أكثر من كونها قرية. يتكون قسمها الرئيس من أحد عشر قصراً مع مجموعات مبعثرة من النخيل والأثل تقع في منتصف الوادي، ممتدة إلى حوالي الميل الواحد من النهاية إلى الأخرى. ولا يبعد مركزها بأكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة عن صخور غار التي يجري فيما وراءها مجرى السيل الرئيس. توجد قصور وأشجار نخيل واسط على بعد ميل واحد من موقعنا، وتجاه مجرى أسفل الوادي، وتابع للمجموعة الرئيسة، وأكثرها أزهار في الواحة، بينما إلى أسفل قليلاً يوجد كل من حميض وقضّة في هذا الترتيب.

كان هذا كل ما يمكن أن يشاهد في الواحة من غار، غير أنه توجد سلسلة من مزارع نخيل صغيرة مماثلة وعدد من القصور في الوادي تجاه مجرى أسفل الوادي لقضّة وهي: الخضرين، وبادية، وقنز، وحسو، والعين، والبَغَثُ،

والمريفق، والحرفين، والجزيرة. وهذه الأخيرة تبعد حوالي ١٣ ميلاً من قضّه والبقية تتوزع على مراحل بينهما. يجري الوادي، فيما يلي جزيرة إلى مسافة ١٢ أو ١٣ ميلاً في مجرى يسمى الثَفْنُ وهو موقع اتصاله الفعلي مع وادي تثليث. يكون طول وادي مسيرق على هذا الأساس حوالي ٣٠ ميلاً باتجاه أعلى الوادي اتجاه النهر، من نهاية مجموعة خيبر الأساسية، وتمتد الواحة كلها، وبشكل متقطع فوق امتداد طولي يقدر بـ ١٧ ميلاً. ومعظم سكانها من بني واهب (شهران). وقد كان رئيسهم، في هذا الوقت الشيخ حياف الفوي. كما يبدو احتمال وجود عناصر من كود بين السكان برغم أن هؤلاء بدو بصفة قاطعة. يرأس قبيلة شهران سعيد بن مشيط، والذي سنقابله ببلدته فيما بعد.

لقد عثرت على عدد قليل من النقوش الثمودية إلى جانب رسم بدائي لجمل وذلك أثناء تجولاتي بين صخور الغار، أخبرني حمود بأنه توجد تسجيلات مماثلة على جبل جمرة الجرانيتي الذي ذكرناه من قبل. وبعد أن أمضيت بعض الوقت في نسخ هذه النقوش والرسوم إلى جانب البحث عن الطيور التي شاهدت منها: الهدهد، والعوسق وبعض العصافير، وكذلك شاهدت نوعين من الغداف وعدداً من القنابر المتوجة في مساحات معتبرة في حقول الجذامة التي تم حصادها منذ فترة طويلة. مررت وزملائي على الواحة، حيث عسكرنا في المروج المعشبة المريحة عند نهاية القرية في اتجاه أعلى الوادي. كانت توجد فوقنا بركة كبيرة ممتلئة بمياه السيول، وكما لاحظت أن حقول الذرة الصفراء كانت كلها ذات حواجز للإمساك بالماء لري الأحواض. يشاهد بوضوح كمية كبيرة من المياه في الطبقة السفلى في هذا الوادي ذلك لأن معظم الآبار كانت عبارة عن نقر مفتوحة تم حفرها في آراضٍ طينية إلى عمق ٤ أو ٥ قامات وبلا جدران. وتمتلئ هذه النقر مع كل سيل بالطمي ولكنها سهلة الحفر مرة أخرى.

كان الناس فقراء إلى حد بعيد ولكنهم ودودون وكرماء برغم شح ما لديهم. حينما كنت أتجول في الواحة حاملاً بندقيتي، رأيت امرأة تعتني ببعض الثيران، وتنظر ناحيتي في كآبة كانت بحق امرأة شابة ذات عيون جميلة وجبين جميل ومرتدية سمق ملتصق، أوضح كل تقاطيع جسمها الجميل. كانت تلبس أيضاً عصابة للرأس من الفضة، ويبدو بوضوح أنها ذات مكانة في المجتمع المحلي. كان اسمها حمرا، وقد أخبرتني به في الوقت المناسب، حينما أشارت بخجل إلى حمامة تجثم على إحدى شجيرات نخيلها. أطلقتُ النار على الحمامة وقدمتها لها فكان لي شكرها الجزيل وابتسامتها الساحرة. بادرتني فتاة أخرى بالكلام، كانت جميلة أيضاً، وجريئة، ولكن كانت من درجة أدنى مقارنة بالأخرى، وذلك يبدو من ملابسها التي كانت بالية وكان لونها أصفر متسخ - اللون الطبيعي لقشرة الرمان- طلبت مني أن أهديها طائراً أيضاً، ولكن كان لا يوجد لديّ طائر، غير أنها فرحت بأخذها لبعض البنسات. وامرأة ثالثة أكبر منهما سناً جاءت من داخل بعض الخيام المنتشرة أسفل النخيل، سألتني عن عصفورٍ كنت قد صدته لأجل مجموعتي الخاصة غير أنني قدمته لها عن طيب خاطر. كان تجوالي في مزارع النخيل بخيبر في إجماله، تجربة مسلية.

خرجت مرة أخرى، في الصباح، إلى القسم الثاني من القرية واسمها وسيط. يقع هذا القسم في الوادي قريباً من مجرى السيل وعلى جزأين يفصلهما سهل صعب عرضه حوالي ٤٠٠ ياردة. كانت كل الحقول هنا ذات حواجز، كما هو الحال في خيبر، لأجل الإمساك بالماء. يقع القسم الثاني هذا تجاه أسفل الوادي بالنسبة للقسم الأول، ويتكون من مزرعة صغيرة لأشجار النخيل، وكانت المنازل في كليهما صغيرة وحقيرة. كانت الحقول مقسمة أيضاً إلى مربعات صغيرة لأجل

الري الملائم. كما بدت شجرة زيت الخروع مزدهرة بكثافة في هذه القرى، وفي بعض الحالات نمت إلى حجم الأشجار الحقيقية. رأيت بئرين في الوسط وبهما الماء عند عمق أربع قامات وبئراً ثالثة كان يحفر بالفعل في تكوين بازلتي –عند عمق خمس قامات– حينها، بجوار الجانب الأيمن للوادي. كان النساء يقمن بالعمل، وأثناء مروري بالقرب منهن، دعتني إحداهن أن أُقْبِل لتناول بعض اللبن. ذهبت إليهن، فقط لأتبين أنهن حقيقة ليس لديهن لبن، ولكنهن أردن أن يرين الرجل الذي كان يطلق النار على طيورهن. وقفت لحظة لأتحادث معهن، ووجدت أن النسوة الثلاث كن يمثلن ثلاثة أجيال للأسرة نفسها. الابنة، والأم، والجدة. ربما لا يفصلهن أكثر من ٣٠ سنة، عن السيدة الكبرى، وقد تكون الصغرى أقل مني سناً، كما كانت في صحة سليمة ومعافاة.

كان إنتاج التمر في هذه الواحات من صنفين– صنف صغير يسمى وغ وصنف أكبر يسمى صفري وهما النوعان الرئيسان لمزارع النخيل في بيشة. كانت الواحة الرئيسة، حيث عسكرنا، محمية من السيول بحاجز منخفض من الرمل عبر مجرى السيل في اتجاه أعلى الوادي، ويوجد حاجز مماثل أسفل المزارع الرئيسة ليمسك المياه أطول فترة ممكنة لأغراض الري. رأيت من الطيور إلى جانب اليمام والهدهد –الأخير هذا منه أعداد معتبرة– بشنون البقر (غرنوق) بالقرب من البركة وأيضاً حصلت على خرشنة، كما يكثر الحمام المحلي الشائع في الجزيرة العربية، وهو الذي يزور المسجد الحرام في مكة وفي أسراب كبيرة.

كان الظهر قد ارتفع حين غادرنا خيبر لبداية المرحلة التالية لرحلتنا عبر مجرى السليل الذي يمكن أن نعد جانبه الأيمن على امتداد سلسلة جبال شمران حدوداً جنوبية لمنطقة بيشة. يعبر الطريق بطن السيل من أعلى البركة ويصعد الوادي في

اتجاه الجنوب الغربي، ثم يدور بعد مسافة ثلاثة أميال أكثر ناحية الجنوب والجنوب الشرقي في المرتفعات العليا للمجرى، لقد أصبح المجرى هنا ضيقاً ومخترقاً السفوح الجبلية للبلاد. تركنا السليل بعد مسافة ستة أميال أخرى في الاتجاه العام نفسه، إلى بعض التلال التي تسمى روضان، ثم اتجهنا شمالاً إلى شعيب معو، حيث وصلنا بعد ميلين أعلى الوادي والحد الفاصل لمنطقة بيشة. كنا على ارتفاع ٣٥٠ قدماً من خيبر وحوالي ٢٠٠٠ قدم من الروشن، وحوالي ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

ألقينا النظرة الأخيرة على خيبر والعلامات الأرضية التي ألفناها إلى شمال هذه البلاد. يقع أمامنا الآن مرتفع من الأرض ذو أحواض واسعة (أغراف) في وسطه. فنحن الآن على أطراف منطقة جديدة هي: خميس مشيط.

obeikan.com